تطــور الاستشــراق في دراســة التــراث العــربي لعبـد الجبـار نــاجـي

معتــز محـــي عبـــد الحميـــــد

إن الجانب المهم في موضوع الاستشراق إذا ما رجعنا إلى بداياته نجد أن الحركة قد ظهرت وتحددت اتجاهاتها وتركزت في الفترة التاريخية التي برز فيها مخطط الغرب مدفوعاً بدوافع سياسية واقتصادية للتوجه نحو الشرق والمنطقة العربية بالذات لاستعمارها والسيطرة على مصادر الثروة فيها واستغلالها. إن المطامع الغربية لم تظهر بصورة فجائية بعد الثورة الصناعية الأوربية إذ أن هناك شواهد ثابتة تشير إلى أن الغرب وعلى حقب متلاحقة حاول عسكرياً فرض هيمنته على المناطق المهمة في الخارطة العربية، ومن أجل ذلك ظهرت الحاجة إلى الكتابة عن المنطقة ليكون عوناً ودليلا إلى المستقبل، فلقد ألّف (فلافيوس اديان) اليوناني عدة كتب أهمها كتابه عن حملات الاسكندر الكبير جعله في خمسة عشر قسماً وصف في ثمانية أقسام منها أحوال منطقة الخليج العربي والهند، ورحلة القائد اليوناني نير خوس قائد الاسكندر في الخليج. أما بالنسبة للمؤرخ المعروف (سترابون) فقد أفرد في كتابه عن (الجزيرة العربية) فصلا خاصاً تحدث فيه عن المدن العربية والقبائل وبين فيه أحوال العرب التجارية والاجتماعية والاقتصادية إذ أنه أفاد من مرافقته لحملة (غاليوس) وكان صديقاً ومقرباً لقائدها، وهي حملة مشهورة وقعت سنة ٢٥ ق.م كان الهدف منها السيطرة على بلاد اليمن ووضع اليد على تجارتها ومصادر الثروة فيها والامساك بطرق التجار الهامة هناك.

وفي القرن السادس عشر الميلادي توجهت حملات البرتغاليين لاستعمار المنطقة العربية والسيطرة على التجارة فيها وتأمين الطرق الممتدة عبر المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر، هذا المشروع سبقته حركة عسكرية نشطة أطلق عليها اسم (حركة الاستكشافات الجغرافية) وفي الحقيقة أنها حركات استكشاف علمية في ظاهرها من أجل الوصول إلى المناطق المسيطرة على طريق الهند التجاري، إنها في واقعها، وبما استطاع روادها من جمع معلومات جغرافية واجتماعية واقتصادية مفصلة عن المنطقة، مهدت السبيل وقدمت العون الكافي للقائد البرتغالي البوكيرك في أثناء توغله العسكري في منطقة الخليج العربي وغزوه للمناطق الآهلة بالسكان غزواً عسكرياً وحشياً مضطهداً فيه عرب المنطقة جاعلا هدفه من ذلك إضعاف هيمنتهم التجارية للاستحواذ على مصادر التجارة والثروة في الخليج العربي . مما أوردناه يتبين أن الأطماع الغربية في المنطقة العربية ليست وليدة القرن التاسع عشر فصاعداً ، وإنما هي قديمة، كما أن الكتابات عن أوضاع المنطقة اجتماعياً وتاريخياً وجغرافياً واقتصادياً بما يخدم تلك الأطماع هي الأخرى قديمة ومرتبطة بها، لذلك لا يمكن في رأي الأستاذ المؤلف وصف تلك الكتابات بأنها مساهمات استشراقية. لقد أثار موضوع الاستشراق والمستشرقون وعلاقتهم بالاسلام والفكر الاسلامي اهتمام عدد غير قليل من المفكرين العرب، والكتاب الذي نطرحه اليوم مستعرضين ما ورد فيه بين

يدي القارىء هو من سلسلة الموسوعة الصغيرة يحمل الرقم (٨٥) من اصدارات دار الجاحظ للنشر التابعة لوزارة الاعلام في الجمهورية العراقية، قام بطبعه دار الحرية للطباعة ببغداد وهو من الحجم الصغير في ١٣٤ صفحة وهو من أربعة فصول أوشكت أن تعطي القارىء العربي صورة واضحة ومركزة عن حركة الاستشراق وأهم ما توصلت إليه من نتائج التركيز على أعلامها ومؤلفاتهم وما أفرزته هذه الحركة من ظواهر إيجابية ومردودات سلبية:ـــ

*** الاستشراق والتاريخ العربي الاسلامي :ـــ**

في الوقت الذي نظر فيه الكتّاب العرب إلى التحيز والتعصب اللذين اتسم بهما الاستشراق ضد الاسلام، فإن عدداً من المؤلفين الأجانب وقفوا في عدد من مؤلفاتهم على المساهمات الاستشراقية تلك موضحين أهميتها من جانب وموجهين الأنظار إلى المراكز الثقيلة التي دارت حولها كتابات أولئك المستشرقين وبصورة خاصة الأوائل منهم، وضع (ساذرون) كتابا تضمن وجهات نظر غريبة تجاه الاسلام خلال فترة العصور الوسطى، وكتب (فوك) وهو الماني عن الدراسات العربية في أوربا. وتوالت بعد ذلك الدراسات الهامة والكتابات الغزيرة لأمثال إبراهيم جيجير ووليم ميور ومايكل اماري ورينان وغوستاف وأميل لودفيج وكيتاني وتوماس آدفر.

والحديث عما كتبه الأجانب عن مساهمات رجال الاستشراق الأوائل يحتم علينا أن نطرح المزيد من الكتابة العربية ونركز على التفسيرات الحاقدة والمتعصبة التي صدرت من أولئك المستشرقين الأولين، لأنهم بما خلفوه من كتابات وضعوا أسساً أثرت في التفكير الأوربي عن الاسلام والتراث العربي الاسلامي، ولعل ما كتب في هذا الباب إلى الآن تعوزه الدقة، والرجوع إلى الكتابات الأصلية للمستشرقين لدرسها وكشفها واظهار زيفها ونقضها على معتنقيها، كما أن ما كتب إلى الآن لم يقف على الخلفية التاريخية الأوربية من أجل إبراز الدوافع الحقيقية الكامنة وراء أولئك المستشرقين، فان الفترة التاريخية التي ظهرت فيها تلك الكتابات لعبت أدواراً في بعض الأحيان في توجيه روح تلك الدراسات الوجهة التي تعنيها.

*** المجالات التي ركز عليها الاستشراق في دراسة التاريخ العلمي الوسيط :ـــ**

لقد دفع عدد غير قليل من أولئك المستشرقين الأوائل والمتأخرين على حد سواء كتابات اتسمت بدوافع دينية وسياسية وعنصرية وذلك بالتخصص في البحث في مواضيع معينة دون غيرها من التراث الحضاري كالتخصص في الكتابة عن الفرق الاسلامية أو المذاهب الفقهية أو الدعوة الاسلامية وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم، إن المستشرقين في كل من فرنسا وألمانيا وبريطانيا وأمريكا قد شغلتهم هذه الأمور كأكثر ما يشغلهم أي أمر من نواحي الحياة الأخرى لا سيما منذ القرن الثاني عشر الميلادي فصاعداً، والسبب هو العلاقة السياسية الوثيقة المرتبطة بحركة التوسع والاستعمار الأوربيين، فالكتابات الاستشراقية عن المنطقة العربية وما قدمته من معلومات تاريخية وجغرافية ودينية وإحصائية لها أهمية كبيرة بما قدمته من تفصيلات وبما كشفته من مناح خفية من وجهة نظرهم، لذلك فإن المستشرقين بتوجههم وانصرافهم إلى دراسة تلك المواضيع يكونون قد حققوا وعلى المدى البعيد أهدافاً سياسية هامة تؤدي إلى تثبيت السيطرة وبسط النفوذ السياسي.

*** المستشرقون والمراحل التي مر بها الاستشراق :ـــ**

على من يتصدى للكتابة عن الاستشراق أن يميز بين نشاطات المستشرقين ودراساتهم وبين دراسات وكتابات عدد من المبشرين ولا سيما في المرحلة الأولى من مراحل تطور الحركة الاستشراقية فلقد أكبّ بعض المبشرين على اللغة العربية يدرسها ويتعلمها وراح البعض يكتب عن الدين الاسلامي والحضارة الاسلامية وعن العلاقة بين الديانتين المسيحية والاسلامية وأولى بعض منهم

اهتماماً بالنواحي الجغرافية والاجتماعية.

بقيت بعض الأفكار الاستشراقية التبشيرية مستمرة حتى القرن الحالي لا سيما في كتابات المبشر الرومنيكي جاك جوميه والأب لويس كارديت الأستاذ المتخصص في اللاهوت والفلسفة في معهد تولوز بفرنسا، والأب لامانس والأب صموئيل زويمر، ولقد اعتمد البعض من هؤلاء على الكثير من تراث العرب — المخطوط لمعرفتهم باللغة العربية.

المرحلة الأولى تمثل الاتجاهات التي سادت خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر فقد استمر خلالها الاستشراق الهولندي والفرنسي مهتماً بالدراسات اللغوية والأدبية العربية وهنا يمكننا إضافة الاستشراق الألماني والاستشراق البريطاني والاستشراق الروسي ابتداءً من القرن التاسع عشر واعتمد في نشأته كثيراً على الاستشراق الألماني فقد استدعى القيصر المستشرق (دورن) الذي كان متقناً للغة العربية ووفد على روسيا المستشرق كريمسكي وفراهن الذي أصبح رئيس قسم اللغات السامية بجامعة (زان) فنقل هؤلاء الاهتمام اللغوي إلى الدراسات الاستشراقية الروسية، ومما يجب ذكره توجه المدارس الاستشراقية الواسع نحو نشر المخطوطات العربية وتحقيقها وترجمة البعض منها أو التقديم للبعض الآخر والتعريف به، ولكن المأخذ على أعمال هؤلاء خلال هذه الفترة **هو أن الاتجاه نحو التحقيق أو نشر المخطوطات كان غير منسق إلا القليل منهم، فقد نشر المستشرق الهولندي دي يونغ (صحيح البخاري) و(الانساب) لأبي فضل** المقدسي وكتاب (الخراج) ليحيى بن آدم القريشي.

أما بالنسبة للمستشرق الآخر المشهور (دوزي) فقد حقق (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) للمراكشي ونشر (البيان المغرب) لابن عذّاري ونفح الطيب ونزهة المشتاق، ومن المستشرقين الفرنسيين دي ساسي الذي نشر العديد من المخطوطات الموجودة في مكتبة باريس الوطنية وكتب عن تاريخ قدماء العرب وأصل آدابهم وحقق عن اليمن عدداً من الكتب وأشعار لأبي العلاء المعري ومقامات بديع الزمان الهمداني والحريري، وأما المستشرق (فستنفليد) فقد قام بخدمات جليلة بتحقيقاته الكثيرة التي استطاع من خلالها نشر كتاب (تذكرة الحفاظ) للذهبي و(وفيات الأعيان) لابن خلكان و(تقويم البلدان) لأبي الفداء، و(اللباب في تهذيب الأنساب) لابن الأثير و(تهذيب الأسماء) للنووي و(البيان والأعراب عما في أرض مصر من الأعراب) للمقريزي و(المشترك) لياقوت الحموي و(المعارف) لابن قتيبة و(الاشتقاق) لابن دريد وعدد من الكتب عن تاريخ مكة المكرمة. إن الملاحظة التي ينبغي تسجيلها من قبل من يتصدى للكتابة عن تاريخ هذه الحركة هي ارتباط الدراسات الاستشراقية بالتبشير وخضوعها للتأثير الديني يقول (بيتر جران) عن الاستشراق الأمريكي إن بدايته كانت تتصل بارتباطي الدين والتجارة ، وخير من يمثل ذلك (المستشرق أدوين كالفرلي) الذي عين عضواً في البعثة العربية التي نظمتها الكنيسة في أمريكا فكتب عن القرآن الكريم والرسول (محمد) ﷺ وعن العبادة في الاسلام، وكان المستشرق الهولندي (اربانيوس) متخرجاً باللاهوتيات، وكذلك الحال بالنسبة إلى جوليوس والبرت شولتنس والمستشرق الفرنسي بوستل، أما بروسيا فان معهد الرهبان الأرثوذكسي لقازان هو الذي اهتم بالدراسات العربية كمحاولات لاجراء المقابلات بين القرآن الكريم والانجيل، وفي جامعة خاركوف عين أول استاذ لتدريس العربية وهو راعي الكنيسة المحلية بيرنديت.

والمرحلة الثانية شهدت ضعف الاتجاه نحو اللغة العربية والدراسات اللغوية.

وخلال هذه المرحلة برزت الصهيونية كحركة شوفينية اعتدائية مستغلة تلك الصراعات الاستعمارية لصالحها واستعمارها جزءاً من الوطن العربي، إن التطورات التي شهدتها هذه المرحلة قد أثرت تأثيراً كبيراً على الحركة الاستشراقية فخضعت هي الأخرى إلى هذه المؤثرات لارتباطها بسياسة الدولة التي تنتمي إليها. ولكن من ناحية أخرى نجد عملية الكشف عن دفائن الفكر العربي **في كنوز مخطوطاته ما زالت متواصلة، لكن التحول الجديد الذي طرأ هنا هو تجاوز العشوائية**

والاهتمام بالمخطوطات التي تتعلق بكافة مناحي الفكر الانساني، ولقد شارك عدد من المستشرقين البريطانيين في هذا المجال إذ حققوا بعض المخطوطات وترجموا البعض الآخر إلى اللغة الانجليزية، فالمستشرق (امدروز) قام بتحقيق نخبة مهمة من التواريخ الاسلامية أمثال تجارب الأمم لمسكويه، ونشر تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء لهلال الصابي وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي والتذكرة لابن حمدون والاحكام السلطانية للماوردي، والمستشرق (مرجليوث) الذي حقق ونشر عدداً من الكتب الأدبية كمعجم الأدباء لياقوت الحموي والحماسة للبحتري والأنساب للسمعاني ونشوار المحاضرة للتنوخي، وترجم كتاب تلبيس ابليس لابن الجوزي ومختارات من كتاب الامتاع والموانسة لأبي حيان التوحيدي.

المرحلة الثالثة : **ـــ تناقص اهتمام المدارس الاستشراقية بالدراسات اللغوية الى درجة كبيرة ولكن المانيا استمرت تقدم عدداً من الدراسات المتعلقة باللغة العربية** ويقف المستشرق (كارل بروكلمان) على رأس القائمة إذ صارت كتاباته مصدراً غنياً يرجع إليه الباحثون، إذ كتب عن النحو والصرف في العبرية والآرامية وقواعد اللغة العربية وبفضل علم النحو والصرف المقارن للغات السامية، وترتيب الهجائية العربية ويليه المستشرق (كريمر) أستاذ اللغة العربية وصاحب معجم اللسان العربي الفصيح والدراسات اللغوية عن المعاجم القديمة وغير هذين كثير. وما تسنى للمؤلف تتبعه خلال المراحل المذكورة يشير بوضوح إلى ارتباط تلك التصورات والاتجاهات بالمصالح الأوربية والأمريكية في المنطقة العربية بصورة عامة. إن هذا الاستنتاج لا يتعارض مع ما توصل إليه بعض الكتاب العرب المحدثين من تصنيف للمستشرقين بالنسبة إلى مواقفهم وتفسيراتهم لقضايانا المعاصرة وتراثنا العربي والاسلامي.

ويبقى هذا الكتاب على وجازته دراسة مهمة في حقل الاستشراق لأنه واصل ما بدأه الكتاب الأوائل عن هذه القضية فاستطاع أن يتوصل إلى نتائج هامة ليس بميسور القارىء العربي أن يتوصل إليها من خلال هذا البحث أو ذلك مما ينشر حول هذا الموضوع الحيوي الهام الذي ترك طابعاً واضحاً في حياتنا الثقافية المعاصرة وتمكن من اسماع صوت العرب في المحافل الثقافية بما نقله وترجمه ونشره من افكارهم سواء اتسم ذلك بالايجاب أو بالسلب وعلى الله قصد السبيل.